

السيد
الاعوان

الأستاذ

تصديرها كلية التربية بجامعة بغداد

واردته

المجلد العاشر

بعضديه

١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

سليوبه أثره في تطور الثقافة العربية ومنهجه في البحث العلمي (١)

للاستاذ كمال ابراهيم

عميد كلية التربية ورئيس قسم الآداب الموحد بجامعة بغداد

تمهيد :

كانت البصرة اول مدينة مصرت بعد الاسلام ، واستوطنتها قبائل العرب الفاتحة ، ومن لحق بهذه القبائل بعد ذلك وآثر الاقامة في العراق ، وقد سبقت بناء الكوفة بستة أشهر على الصحيح وظلت رقعتها تتسع ، وسكانها في ازدياد ونمو ، حتى ذكروا ان سكانها من رجال فقط بلغوا الى عهد المنصور خمسمائة الف رجل اذ فرق فيهم ألف الف درهم فأصاب كل واحد منهم من ذلك درهمين ، واذا كان هذا النمو المطرد المتلاحق في سكانها ، يعطينا صورة عن تضخم هذا المجتمع الجديد ، واتساع العمران ، ويدل على المكانة التي تبوأتها البصرة في العالم الاسلامي حينذاك ، فانه يعكس لناصورا أخرى من الحياة الحضارية والحركة الثقافية وتطور الفكر العربي الاسلامي في اول حاضرة من حواضر الاسلام أنشئت بعد فتح العراق .

والحق ان عوامل عدة فعلت فعلها في ابتعاث هذه الحضارة وتنامي الحركة الثقافية والفكرية بتلك السرعة البالغة ، اذا أنها ما لبثت بعد انشائها بقليل حتى اصبحت مركزا سياسيا وعسكريا واقتصاديا هاما بحكم اطلالها على البحر وطرق البر وقربها من بوادي العرب كما اصبحت مركزا أدبيا بارزا ، ومناورا للثقافة الاسلامية يشع بنوره الساطع على البلاد الاسلامية كلها . .

سكنها في نشأتها الاولى فريق من الصحابة ؛ ونزل فيها الامام علي ابن ابي طالب (ع) واختلف اليها ، ثم سكنها سادات التابعين وعظماء العرب ورؤساء قبائلهم كالاخنف بن قيس سيد تميم البصرة والحكم بن الجارود سيد عبدالقيس ومالك بن مسمع سيد بكر البصرة وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ونظراؤهم ونزلها أنس ابن مالك وكان للحسن البصري وابن سيرين أثر ايمان في الحياة الاسلامية والثقافية الدينية فيها . كما كان للمربد أثره في الثقافة الادبية واللغوية والنحوية ، اذ كانوا يخرجون اليه ليتناشدوا الاشعار ويلقوا الرواة ويقبسوا اللغة عن فصحاء العرب ، ويأخذ

النحاة ما يستعينون به على تصحيح قواعدهم او استنباط الجديد منها . روى القالى فى الامالى عن الاصمعى قال : « جئت الى أبى عمرو ابن العلاء فقال لى : من اين اقبلت يا أصمعى ؟ قلت : جئت من المربرد ؛ قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى الواحى ، فمرت به ستة احرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة ، وقال : « شمريت فى الغريب » اى غلبتنى ^(١) ، وقال ياقوت فى معجم الادباء « ان الجاحظ تلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربرد ^(٢) »

وبحكم ان البصرة أول مدينة مصرت بعد الاسلام وكانت وسطا بين بلاد العرب وفارس ، فقد سكنها كثير من الفرس وخالطوا أهلها ، فكان ذلك داعية نشوء اللحن وفساد الالسنه وظهور اللغة العامية كما كان فى سواها وبحكم كونها قد غدت مركزا لعلوم الدين وعلوم العربية اصبحت مرتاد كل طالب علم من ابناء العرب وابناء العجم جميعا ، فاتسعت حلقات العلم فى المساجد وفى غير المساجد ، وزخرت بحركة علمية هائلة ، تنهل من فيضها البلاد الاسلامية قاطبة .

وكانت الثقافة السائدة فى هذه الحلقات والمجالس يكاد يجمعها نوعان من الدراسة هما (١) الثقافة الدينية التى تشمل علوم التفسير والحديث والفقه والكلام والمواريث وما يتصل بهذه العلوم (٢) الثقافة اللغوية والأدبية التى تنتظم علوم الادب والرواية والسير والامثال والنحو الصرف واللغة والعروض والقافية وما يتصل بهذه العلوم كالايام والمغازى وقصص العرب .

على ان الاتصال كان جد وثيق بين النوعين من الدراسة فأكثر الدارسين يدرسون هذه العلوم كلها او معظمها حتى اذا غلب على احدهم فى الحدق والضلاعة أحد هذه العلوم ، عرف به اكثر مما يعرف بسواه ، وقد يوغل فى التخصص به والاحاطة بدقائقه حتى يعدو اماما فيه ، فيتصدى للتدريس وعقد الحلقات ، وتقرير الحكم والرأى فى كثير من المسائل العارضة . وعلى هذا الاساس قيل : فلان فقيه وفلان راوية وصاحب أخبار ، وفلان نحوى أو لغوى ، وفلان متكلم ، او من اصحاب الرأى والجدل والقياس وهكذا ، وقل أن تجد فى هذا العصر وما بعده من لم يجمع بين هذه العلوم ويلم بها ، أو يصنف فى انواع منها ، وان غلب عليه احدها . فأبو عمرو بن العلاء جمع ما لم

يجمع غيره من شعر العرب وأخبارهم والعلم بالغريب والشواهد وكان من ائمة القراء ، كما كان كذلك في النحو واللغة وكان الحليل بن احمد صاحب علوم جمعة تنتظم الشعر والمعرفة بالغريب والنحو والاشتقاق والتصريف واللغة والعروض والموسيقى والنغم فاشتهر على الاكثر بما اخترع وصنف ، وقل مثل ذلك في ابي زيد الانصاري ويونس ابن حبيب وخلف الاحمر وأبي عبيدة والاصمعي وسيويه والاخفش وغيرهم . . . وكانت بداية سيويه في دراسته هي دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين على الغالب ، حتى دفعته لجنة من اللحنات الى ان يقبل على الحليل ليقيم لسانه على الصواب باتقان النحو ، فغلب بعد ذلك عليه واشتهر به .

اصل سيويه ونشأته :

هكذا كانت البصرة حين غدت مرتاد كل طالب علم ، فاقبل على تلك الحلقات وشيوخها وبخاصة حلقات العربية طوائف من ابناء فارس منهم من كان يستوطن البصرة ، ومنهم من قصد اليها للتعلم ، اذ وجد أن هذه السبيل هي خير السبل الميسورة لامثالهم ، للارتزاق والتكسب عن طريق خدمة الدولة بالكتابة في دواوينها او طريق التعليم والتأديب ولا سيما اذا بلغ بأحدهم فضله الى أن يكون مؤدب ابناء الخلفاء او الامراء أو سرة الناس ، ولذلك كانت حلقات النحويين واللغويين اكثر الحلقات حفلا بأمثال هؤلاء ، ولانهم من الجهة الاخرى اكثر حاجة الى تقويم ألسنتهم بهذه العلوم من ابناء العرب ، وان تسرب اللحن الى السنة هؤلاء كذلك .

وقدم سيويه البصرة وهو غلام يفعة وضيء الوجه جميل الطلعة حسن السميت رزين يزينه الوقار بما يبديه اكبر من سنه وديعا سمحا حسن العشرة ، فعرف بلقبه « سيويه » وهو تركيب فارسي من لفظتي « سيب » و «ويه » اي رائحة التفاح (١) اكثر مما عرف باسمه وهو « عمرو بن عثمان بن قنبر » او بكناهه وهي « أبو بشر وابو الحسن وابو عثمان » وأشهرها الاولى .

وكان مقدمه من « البيضاء » من اعمال فارس وهي من كورة اصطخر على ثمانية فراسخ من شيراز سميت هذا الاسم لبياض ظاهرها اذ كان يبين من بعيد ، واتخذها

(١) لقب بذلك قيل لان امه كانت ترقصه وهو طفل فتدعوه به ، وقيل ان من يلقاه كان يشم منه رائحة الطيب او لقب به تشبيها لوجهه بالتفاح الى غير ذلك من التأويلات ، والقول الاول ارجح لان هذا اللقب جاء به معه من فارس ، ويبدو انه منذ الطفولة .

المسلمون معسكرا لهم في فتح اصطخر وهي بلدة طيبة تامة العمارة وافرة الخصب كثيرة الغلال . جاء في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي : « ولد سيويه بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء من عمل فارس ، ثم قدم البصرة ليكتب الحديث » . اما مولده في هذه القرية فلم يحدده أحد ، كما لم يكتب من كتب عنه شيئا ما يتصل بنسبه وأسرته خلا اسم ابيه وجده ، اذ لم يكن هذا المولود الناشئ ليؤرخ له وما هو الا من غمار الناس ، ولكننا علمنا انه كان يدين بالولاء لبني الحارث بن كعب ، على ان نوع هذا الولاء لهذه القبيلة اليمانية لم يكن في اصله ليعرف أهو ولاء عتق ام ولاء اسلام ؟ كذلك لم يكن ليعرف بالتحديد السن التي قدم فيها البصرة وغشى حلقات دروسها ، وان كانوا قد ذكروا انه قدم اليها وهو غلام ، وقد روى عن أبي زيد الانصاري انه قال « كان سيويه غلاماً يأتي مجلسي له ذؤابتان » .

مصادر ثقافته :

وجرى سيويه على الطريقة التي يجرى فيها طالبو العلم حينذاك ، فحضر حلقات عدة ، وكان همه أول أمره دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين الاخرى واتخذ من دروس العربية ما يعينه على تفهم حقائق الدين والتفقه في احكام الشريعة وفهم القرآن الكريم ، قال القفطي (٢) : « كان سيويه في اوائل ايامه صحب الفقهاء وأهل الحديث » وكان اكثر من صحب من هؤلاء « حماد بن سلمة » وكان محدثاً فقيها عالماً بالعربية فصيحاً بليغاً ، روى له مسلم والاربعة ، ويعد من اشياخ البصرة المقدمين ، وقد لازمه سيويه طويلاً وأخذ عنه كثيراً ، ولم ينقطع عنه حتى بملازمته الخليل بن احمد الا بزمان ، وقد ذكروا أن لحنة لحنها في مجلس حماد دفعت به الى التزيد في طلب العربية وملازمة الخليل ، قال صاحب طبقات النحويين : « فينا هو يستمل على حماد بن سلمة قول النبي صلى الله عليه وسلم : ليس من اصحابي الا من لو شئت لاخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيويه : ليس ابو الدرداء ، وظنه اسم ليس ، فقال حماد بن سلمة : لحن يا سيويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، انما ليس ههنا استثناء ، فقال سيويه : لا جرم لاطلبن علماً لاتلحنى فيه ابداً ، ثم لزم الخليل » .

ولا ريب ان تعقيب سيويه على حماد بالتصحيح على زعمه يشعر انه كان على ثقة بنفسه في اطلاعه على العربية بما كان له من دراسات سابقة ولا حقة فيها بحيث اراد ان

يستدرك على مثل حماد أو يخطئه فيما نطق ، ويروى صاحب الطبقات لحنة اخبرى وقعت له في مجلس حماد فيقول : « وقال عبيدالله ابن معاذ العنبري البصري : جاء سيويه الى حماد بن سلمة ، فقال : أحدثك هشام بن عروة عن ابيه في رجل رعف (نطقها بضم العين) في الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت ، انما هو رعف (بالفتح) فانصرف الى الخليل ، فشكا اليه ما نقيه من حماد ، فقال : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا . ورعف (بالضم) لغة ضعيفة والصحيح رعف (بالفتح) .»

ولما لازم سيويه الخليل كان على قدم ثابتة في علوم الفقه والقراءات والحديث ، وتذكر له الروايات عدة مسائل دقيقة في هذه العلوم كانت تعرض له في حلقاته او يستطرد اليها تشعر بدقة فهمه وواسع اطلاعه ، وكان تضلعه في العربية والنحو خاصة قد زاد الى نضجه واكتماله اكمالاً آخر .

تجد لذلك دلائل مما كان يقع له في حلقات دروسه او مما رواه في كتابه ، ذكر محمد بن سلمان قال « كان سيويه النحوي جالساً في حلقاته بالبصرة ، فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر حديثاً غريباً ، وقال : لم يرو هذا الا سعيد بن أبي العروبة ، فقال بعض ولد جعفر بن سليمان : ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟ فقال : هكذا يقال : لان العروبة هي الجمعة ، ومن قال عروبة فقد أخطأ ، قال ابن سلام : فذكرت ذلك ليونس ، فقال : أصاب لله دره ! وفي كتابه اشارات الى طائفة من القراءات ، فيقول : وكان فلان يقرأ هذا الحرف وفلان يقرأ هذا الحرف ، وهذه في قراءة ابن مسعود وأمثال ذلك ما يروى له مما ينم عن مبلغ علمه باللغة ، وقد روى صاحب الطبقات عن ابن عائشة ، قال : « كنا نجلس مع سيويه النحوي في المسجد ، فينا نحن عنده ذات يوم اذ هبت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر اي ريح هي ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من صفر ، فنظر ثم عاد ، فقال : لا يثبت الفرس على شيء ، فقال سيويه : العرب تقول في مثل هذا تذابت الرياح ، اي فعلت فعل الذئب ليختل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب » . وقال ابو اسحق الزجاج (١) « اذا تأملت الامثلة في كتاب سيويه تبينت انه اعلم الناس باللغة » .

فرى من هذا ان سيويه كان يمثل في شخصيته العلمية الحياة الثقافية السائدة في البصرة في هذه الفترة ، ويجمع في الحقيقة بين الثقافتين الدينية واللغوية ، وتضلع

منهما على ايدي شيوخ البصرة وأئمتها ، ولكنه عرف بالنحو واشتهر اذ فرغ له فسي النهاية أكثر من غيره ، وعقد مجلسه عليه ، وصنف فيه ، واستتبط وقاس وعلل وولد ، حتى لقب بسيويه النحوي ، واصبح فيه حجة الحجج ، وامام البصريين وصاحب مذهبهم فيه . وهو بسبب ما عرف فيه تطرق الرواة لذكر شيوخه ومن اخذ عنهم من النحويين كما عرضوا لتلامذته ، ولم يذكروا شيوخه في العلوم الاخرى الا عرضاً حين يتصل الخبر بدراسته النحويه تلك .

وذكروا من شيوخه في العربية الخليل بن أحمد وهو رأس الطبقة الثالثة ، وكان سابق الحلبة في سائر علوم العربية ، وفي استخراج المسائل النحوية خاصة ، ولو لم يؤلف في هذا العلم ، فورث سيويه علمه فيه وزاد عليه ، ومن شيوخه كذلك يونس ابن حبيب النحوي وهو من طبقة الخليل وانقطع للنحو أكثر من غيره ، قال أبو عبيدة ، قيل ليونس بعد موت سيويه ان سيويه صنف كتاباً في الف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى سمع سيويه هذا كله من الخليل ، جئوني بكتابه ، فلما رآه ، قال يجب ان يكون قد صدق اذ صدق فيما نقل عني . كما أخذ عن عيسى بن عمر الثقفي وهو من الطبقة الثانية اخذ عنه النحو ، وأخذ اللغة النحو معاً عن أبي الخطاب الاخفش الأكبر وهو من الطبقة الثانية كذلك ، كما اخذ الرواية والشعر والاخبار عن أبي زيد الانصاري والقراءات عن ابي عبدالله هارون بن موسى البصري وروى عنه احرفاً في القراءة في كتابه ونقل عن أبي جعفر الرؤاسي من الكوفيين .

وهو الى كل ما أخذ عن هؤلاء الائمة الذين بلغوا في علوم العربية الغاية وأحسنوا استخراج مسائلها وقياسها لم يقف عند هذا الحد ، لا يزيد ، ولا يأتي عليهم بجديد ، بل خرج الى بوادي العرب ، وطوف في قبائلها وخالط الاعراب ، وشافه الفصحاء وأخذ عنهم وروى وكتب ، واستخرج المسائل وقاس وعلل بما أوتيته من علم جم وبصر نافذ ، وفطنة مدركة فزاد على ما جاء به أسلافه ، وبلغ في ذلك الغاية ، قال ابن خلكان (١) : « كان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه ، وذكره الجاحظ يوماً فقال : لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله وجميع كتب الناس عليه عيال » .

ولهذه المنزلة التي بلغ اليها سيويه في علوم العربية والنحو خاصة اصبح امامه الذي لا يدافع ، فلا يذكر النحو الا بسيويه ولا يذكر سيويه الا به حتى كأنه هو موجد ومخترعه ، وغدا في اقواله وآرائه شاغل أهل العربية منذ كان الى يوم الناس هذا ، وما دام للعربية ظل على وجه الارض •

كتاب سيويه :

اشتهر سيويه بعد عصره خاصة الى اليوم بكتابه المعروف فكان فيه من الخالدين ، وعرف مذهبه النحوي في شتى المسائل بما ضمنه كتابه هذا ، وكان للكتاب مكانة جليدة لم يبلغ اليها كتاب في النحو آخر ، حتى غدا موضع عناية ائمة العربية وغاية طلابها ، فقدره الناس حق قدره ، وعرفوا له يده على العربية عامة ، حتى ذكر اكثرهم انه لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده ، وهذا الجاحظ^(١) مثلا يقول : لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله ، وقال : اردت الخروج الى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء اهديه له ، فلم اجد شيئاً أشرف من كتاب سيويه ، فلما وصلت اليه قلت له : لم اجد شيئاً اهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، وقال : والله ما اهديت لي شيئاً احب الى منه • ورايت في بعض التواريخ ان الجاحظ لما وصل الى ابن الزيات بكتاب سيويه أعلمه به قبل احضاره ، فقال له ابن الزيات : أو ظننت ان خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ يعنى نفسه ، فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجد وأعزها ، فأحضرها اليه ، فسر بها ، ووقعت منه أجمل موقع •

على أن هذا الكتاب • على ما يعتقد - لم يكن قد ختمه صاحبه او فرغ من تأليفه حين احترم ، ولم يكن لكثير من اصحاب سيويه او تلامذته علم به في حياته فلم يقرأه على احد ولم يقرأه عليه احد ، وجاء ظهوره حدثاً فاجئاً لهم ، فبهروهم بكل ما فيه ، وعكفوا عليه ، وعكف عليه من بعدهم حتى سموه « قرآن النحو » ذلك ان سيويه في الحقيقة لم يسمه هذا الاسم « الكتاب » بل كان غفلاً من ذلك ، ولم يجر على عادة اهل زمنه في تسميته المؤلف بأكثر ما فيه أو أهم ما فيه ككتاب الاشتقاق والمقاييس للاخفش

والعين للخليل ، اذ كان على عزم أن يعود اليه حتى اذا فرغ منه تماماً على ما يرى وضع له عنوانه ، فلم يطل به الاجل الى ذلك ، ونجد لذلك ان الكتاب لا مقدمة له ولا خاتمة كما هي طريقة تأليف الكتب ، فأن أوله : « هذا باب علم ما الكلم في العربية ، وآخره قوله : ومثل هذا قول بعضهم « علماء بنو فلان ، فحذف اللام ، يريدون على الماء بنو فلان ، وهي عربية » .

وتداول الناس هذا الكتاب واستسخوه واستملوا منه ، فميزوه من سواء بهذا اللفظ الذي اطلقوه عليه ، حتى عرف به وشهر ، وصار اذا اطلق لا يفهم منه غيره .
لقد حظى كتاب سيبويه أجل حظوة عند أهل العربية كافة مما لم يكن لكتاب غيره قبله أو بعده ، فما اسباب ذلك ؟ وما هذه الخصائص التي اختص به دون غيره من الكتب . . ؟ .

نستطيع ان نجمل ذلك بما يأتي :

- ١ - كان أول كتاب جامع في النحو ، وبهذه الصفة من الاحاطة واستيعاب المسائل ، فلم يغادر من موضوعات النحو والتصريف مسألة قد نظرت من قبل دون أن يعرض لها ، وكان ما ألف قبله من كتب في هذا الغرض قليلة لا تجاوز أبواباً منه ، او اشتاتاً من المسائل ولهذا حين ذكر لابي زيد ان سيبويه قد ألف كتاباً بألف ورقة دهش لذلك ، وظن أنه نحل أو لفق حتى وقف على ما فيه فصدقه .
- ٢ - معرفة أهل العربية بسيبويه من أنه ثقة صدوق في نقله وروايته فقد كان أميناً على ما حكى عن الخليل في مجالسه وما حكاه عن سواء ، فعدوا كتابه غاية في الصدق ، وحجة قاطعة في الرجوع اليه ، والاخذ عنه .
- ٣ - جمعه بين ايراد المسائل والامثلة والتفريع عليها ، والاستخراج منها ، والقياس على النظائر والتعليل ، فهو يجمع بين المادة العلمية المنقولة ومبادئ انفسفة النحوية ، وكثيراً ما يقول : والقياس كذا . . او والقياس ياباه .
- ٤ - لما كان سيبويه قد آلت اليه امامة اهل البصرة ، كان كتابه مرجع آراء البصريين من النجاة وممثل مذهبهم النحوي ، فعدا الكتاب مرجعاً ثبوتاً لهذا المذهب واتضحت فيه خطوطه ومعالجه اذ تقرر رأى رئيسه فيه .

٥ - كثرة ما فيه من الشواهد ، فقد جمع فيه من شواهد الشعر ألفاً وخمسين بيتاً ، حققها وصححها واعتمدها ، ونسبها الى قائلها الا خمسين منها ، قال الجرمي : «في كتاب سيويه ألف وخمسون بيتاً سألته عنها ، فعرف ألفاً ولم يعرف الخمسين» اذ على الرغم من هذا التثبت الذي عرف به سيويه في ايراد الشواهد فقد وقع له شيء جاز عليه ، والغالب انه داخل في تلك الخمسين ؛ جاء ان سيويه سأل اللاحقي : هل تحفظ للعرب شاهداً على اعمال (فعل) ؟ ، قال اللاحقي فوضعت له هذا البيت ، وأدخله في كتابه :

حذر اموراً لاتضير وآمن

ما ليس منجيهِ من الاعداء

وهو ما استشهد به اكثر النحاة في كتبهم • كما أن في الكتاب كثيراً من كلام العرب وأمثالهم •

٦ - لم يكن كتاب سيويه مجموعة ضوابط نحوية جامدة للالفاظ والنطق بها واستعمالها ، بل كان مجلي من مجالي البيان في الشعر والبلاغة وفصاحة الكلام ففي الشعر يستطرد الى ما له صلة بتلك الشواهد الشعرية الكثيرة ، فهو معلم أدب ونحو ولغة وبيان ، وهو في البلاغة يعد الاساس الاول لما وضع بعد ذلك فيها من علوم ، وفيه لمحات بيانية رائعة وخطرات بلاغية مستطرفة ، وبخاصة ما يتصل بعلم المعاني وذكر اساليب التعبير المختلفة بما يقع فيها من ذكر وحذف واظهار واضمار وفصل ووصل ، ومواطن البلاغة في استعمالاتها المتعددة كما نجد فيه نظرات في ضروب من المجاز والتشبيه • ومما جاء في ذلك مثلاً « باب استعمال الفعل في اللفظ والمعنى » والذي منه « ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها » انما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الاصل ، ومثله : بل مكر الليل والنهار ، وانما المعنى بل مكرهم في الليل والنهار ، ومثله في الاتساع قوله عز وجل : ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء » فلم يشبهوا بما ينعق ، وانما شبهوا بالمنعوق به ، وانما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع • ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى •• ثم يستشهد من قول الخنساء بالبيت :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هي اقبال وادبار
فيقول في ذلك : « فجعلها الاقبار والادبار ، فجاز على سعة الكلام كقولك :
نهارك صائم وليلك قائم . »

وعلى هذا يصح ان يعد ما جاء في كتاب سيبويه من نحو بلاغى او بلاغة نحوية
البداية لعلوم البلاغة التي ظهرت بعد هذا العصر . وكان الكتاب فوق ان يكون كتاباً
في النحو فقط .

٧ - تصنيفه على اساس الابواب والفصول التي تجمع مسائل كل موضوع في باب
وفصل واستيعابه الا قليلا لكل المسائل النحوية وما يحتاج اليه طالب النحو كالكلم
واقسامه والفاعل والمفعول والفعل واحكام المصدر والحال والظرف والجر والبدل
والمعرفة والنعرة والمبتدأ والخبر والنسبة والاضافة والتثنية والتصغير وغيرها
وهو يختلف كثيراً عما سبق تأليفه من قبل . على انه وان رتب على الابواب
فكثيراً ما ترد مسائل في باب وهي اخرى ان تكون في ابواب آخر كما ان بعض
المسائل قد تتكرر في ابواب عدة .

مصادره :

يمثل الكتاب غاية النضج التي بلغ اليها النحو العربي في هذا العصر ، وهو يجمع
بين المسائل المنقولة والفكرة النحوية ، فان سيبويه لم يقتصر فيه على رواية اقوال العلماء
بل كان يوازن ويعلل ويقيس ويولد ، ويرجح رأياً على رأى ، ويستشهد باقوال من
أخذ عنهم من العرب الذين يوثق بنصاحتهم ومع ذلك فيمكننا ان نرد مادة الكتاب في
اغلبها الى المصادر التالية :

١ - ما رواه عن الخليل بن احمد في مجالسه ، وعقده بلفظ الخليل ، ولطول ما لزم
الخليل كان ما اخذه عنه اكثر بكثير مما أخذه عن غيره ، ويكاد يكون اكثر مسائل
الكتاب ، ويقول في ذلك قال الخليل او سمعته من الخليل ، او يقول : سألت
الخليل عن كذا ..

٢ - ما أخذه عن يونس بن حبيب النحوى ، وقد نقل عنه كثيراً ايضاً ، وقد ينقل عنه
ابواباً برمتها ، فمن ذلك انه نقل عنه فصلين في التصغير ثم قال : « وجميع ما
ذكرت لك في هذا الباب وما اذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس » .

- ٣ - ما رواه عن استاذہ ابی الخطاب عبد الحمید بن عبد المجید الملقب بالاخفش الاکبر ،
وقد تخرج به سیویہ والکسانی •
- ٤ - ما حکاه من اقوال شیخه ابی عمرو بن العلاء ، وقد یوازن بین قوله وقول
الخلیل ویونس •
- ٥ - ما تحدث به عن أبی زید الانصاری ، فاذا قال : حدثنی من اثق بعربیته فانما یرید
« أبا زید » •
- ٦ - ما حکاه عن أبی جعفر الرؤاسی عالم أهل الکوفة وهو من اوائل من صنف فی العربیة ،
وکل ما جاء فی الكتاب بقوله : « قال الکوفی کذا .. » انما یعنیه به •
- ٧ - ما رواه هو عن العرب ومن شافهم ، فیقول مثلا : ان هذا البیت أشدناہ أعرابی
من افصح الناس وزعم انه شعر ابيه ، ویقول : سمعنا ذلك من العرب ، وسمعنا
من یوثق به من العرب وهكذا •
- فاذا اضفنا الی کمال ذلك ما اضافہ هو بموازنته وترجیحہ
وقیاسه وتعلیله ، ثم ما بین ذلك من عرض المسائل والربط والتفریع والتسیق ،
کان الكتاب بذاته من اجل ما ألف فی هذه اللغة •